﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 79 - 81]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبْلَها:

أوانُ الكشْفِ عن حقائقِ الوقائعِ، تـفـصـيـلًا بـعـدَ إجمالٍ

بعد أن حان وقتُ الفراق، أكَّدَ العبدُ الصّالح، أن يُنبِئَ نبيَّ اللّه موسى، بالحكمةِ الخفيَّةِ وراءَ كلِّ تصرُّفٍ تصرَّفَه، حيث قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، ثمَّ راح يُفصِّلُ كلَّ حالةٍ منَ الحالات الثَّلاثِ على حدةٍ، مرتِّبًا إيّاها حسبَ ترتيبِها في الوقوع، فبدأ بشرح حكمةِ تصرُّفِه بخرق السَّفينةِ، ثمَّ ثنَّى بالغلام، ثمَّ ثلَّثَ بالجدار، فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ جمعُ مسكين، والمسكينُ: الفقيرُ، وقد يكونُ بمعنى الذِّلَّة والضَّعف، يقال: تَسَكَّنَ الرَّجلُ، وتَمَسْكَنَ، كما قالوا: تَمَدْرَعَ وتَمَنْدَلَ، منَ المَدرعة والمنديلِ على تَمَفْعل، وهو شاذٌّ، وقياسُه تَسَكَّنَ وتَدَرَّعَ وتَنَدَّلَ، مثل تَشَجَّعَ، وتَحَلَّمَ، وكان يونسُ يقول: المسكينُ أشدُّ حالًا منَ الفقير، قال: وقلت لأعرابيٍّ: أفقيرٌ أنتَ؟ فقال: لا واللّه، بل مِسْكينٌ[1]، وهنالك من يقدِّمُ الفقيرَ على المسكين، فقيل: المِسْكينُ هو الذي لا شيءَ له، وهو أبلغُ منَ الفقير[2]، وقيل في حدِّهِ: كلُّ من احْتاجَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (سكن).
(2) الرّاغب، المفردات: (سكن).

إِلَى كلِّ شَيْءٍ؛ فهوَ مِسْكينٌ[1]، ولا شكَّ أنَّ الفقيرَ والمسكينَ، تجمعُهما الحاجةُ، وسيأتي في الفروقِ المعجميَّةِ تفصيلٌ للفرق بينهما.

2) ﴿أَعِيبَهَا﴾: العَيْبُ والعابُ: الأمرُ الَّذي يصيرُ به الشَّيء عَيْبَةً، أي: مقرًّا للنَّقص، وعِبْتُهُ: جعلتُه مَعيبًا، إمّا بالفعل، كما قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وإمّا بالقول، وذلك إذا ذممتَه، نحو قولك: عِبْتُ فلانًا[2]، والعَيْب والعَيْبَةُ والعابُ بمعنًى واحدٍ[3]، ومعنى ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، أي: أصنعَ ما يعيبُها في الظّاهرِ دون أن يكونَ له تأثيرٌ على عملها.

3) ﴿وَرَآءَهُم﴾: كلمةُ (وراء) تُستخدم ظرفَ زمان، كما أنَّها تُستخدم ظرفَ مكانٍ، وفي كليهما قد تدلُّ على معنى الخلْفِ أو معنى الأمامِ، وهي منَ الأضداد[4]، وقيل: هو بمعنى الخلْفِ فقط، ودلالتُه على الأمام مجازٌ، وسيأتي تفصيلٌ لذلك في الإيضاح اللُّغويِّ والبلاغيِّ، وقال الكفويُّ: كلُّ (وَراء) في القُرْآن، فهو أَمام إلّا قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: 7]، وقولُه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: 24] أَي: ما سوى ذَلِك[5].

4) ﴿غَصْبًا﴾: الغصبُ: أخذُ الشَّيء ظلمًا، تقول: غَصَبَه منه، وغَصَبَه عليه، بمعنًى، والاغتصابُ مثلُه، والشَّيءُ غصْبٌ ومغصوب[6].

5) ﴿فَخَشِينَآ﴾: أصلُ (خشي) يَدُلُّ على خَوْفٍ وذُعْرٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليْه المَجازُ[7]، يخافون ربَّهم ويعظِّمونه؛ إذِ الخشيةُ، وإن كانت تعودُ في معناها إلى الذُّعر والخوف، لكنَّها في واقعِها هي أشدُّ، وأخصُّها، فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ للمخشي، كأثرٍ للعلم بمقامِه العظيم، كخشيةِ اللّه ﷻ[8]، ومعناها في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾: فعلمنا أنَّه يُرهقُهما، أو كرهنا[9].

6) ﴿طُغْيَٰنًا﴾: أصلُ (طغى) مُجاوَزَةُ الحدِّ في العِصْيانِ، يُقالُ: هوَ طاغٍ، وطَغَى السَّيْلُ؛ إذا جاءَ بماءٍ كَثيرٍ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُريدُ - واللّه أَعْلَمُ -

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 803.
(2) الرّاغب، المفردات: (عيب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (عيب).
(4) الجوهري، الصحاح: (ورى).
(5) الكفوي، الكليات، ص: 918.
(6) الجوهري، الصحاح: (غصب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة (خشي).
(8) الراغب: المفردات، وابن فارس: مقاييس اللغة، والسمين الحلبي: عمدة الحفاظ: (خشي)، وابن الهائم: التبيان، ص: 82.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 85.

خُروجَهُ عَنِ المِقْدارِ، وطَغَى البَحْرُ: هاجَتْ أَمواجُهُ، قالَ الخَليلُ: "الطُّغْيانُ والطُّغْوانُ لُغَةٌ، والفِعْلُ مِنْهُ: طَغَيْتُ وطَغَوْتُ[1] طَغَوانًا وطُغْيانًا، وأَطْغاهُ كذا: حملَه على الطُّغْيانِ، وذلك تجاوزُ الحدِّ في العصيان، كما في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النازعات: 17]، وقولِه تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾[2]، ومعناه هنا: العصيانُ والاستكبارُ على اللّه[3].

7) ﴿زَكَوٰةً﴾: أصلُ (زكى) يَدُلُّ على نَماءٍ وزيادَةٍ، ويُقالُ: الطَّهارَةُ زَكاةُ المالِ، قالَ بَعْضُهُم: سُمّيَتْ بذَلِكَ؛ لأَنَّها مِمّا يُرْجَى به زَكاءُ المالِ، وهوَ زيادَتُهُ ونَماؤُهُ، وقالَ بَعْضُهُم: سُمّيَتْ زَكاةً؛ لأَنَّها طَهارَةٌ[4]، قال الكفويُّ: كلُّ ما في القُرآن من زَكاة؛ فهوَ المال، إلّا قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً﴾ [مريم: 13]، فإنَّ المُرادَ الطُّهرةُ[5]، وقد تجاوزَ الكفويُّ هذه الآيةَ التي معنا: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، فإنَّها منه أيضًا، فهي بمعنى الطُّهر، وليس بمعنى المالِ.

8) ﴿رُحْمًا﴾: أصلُ (رحم)، يَدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يُقالُ مِنْ ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ؛ إذا رَقَّ لَهُ، وتَعَطَّفَ عليْهِ، والرُّحْمُ والمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بمَعْنًى، والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القَرابَةِ، ثُمَّ سُمّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هَذا؛ لأَنَّ مِنْها ما يَكونُ ما يُرْحَمُ، ويُرَقُّ لَهُ مِنْ ولَدٍ[6]، والرَّحْمَةُ: رقَّةٌ تقتضي الإحسانَ إلى المَرْحوم، وقد تُستعمل تارةً في الرِّقَّة المجرَّدة، وتارةً في الإحسان المجرَّدِ عنِ الرِّقَّة، نحو: رَحِمَ اللّه فلانًا، وإذا وُصفَ به الباري، فليس يرادُ به إلّا الإحسانُ المجرَّدُ دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحْمَةَ مِنَ اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومنَ الآدميّين رقَّةٌ وتعطُّفٌ[7]، ومعنى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾: أبرُّ بوالديه وأوصلُ للرَّحم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغى).
(2) الراغب، المفردات: (طغى).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 85.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).
(5) الكفويّ الكليات، ص: 485.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(7) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(8) الواحديّ، الوجيز، ص: 670.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ارتكابُ أخفِّ الضَّررَين مطلوبٌ، ما لم يكن من ارتكابِ أحدِهما بدٌّ

بدأ العبدُ الصّالح الكشفَ عن حكمةِ جميعِ ما بدرَ منه من أفعالٍ، لم يستوعبْها موسى ﷺ، لعدم وقوفِه على حكمتِها، فبدأ بالكشفِ عن حكمةِ خرقِ السَّفينةِ، وهو أوَّلُ فعلٍ وقعَ منه، فبيَّن له أنَّ السَّفينةَ كانت مملوكةً لمساكينَ يتوسَّلون جلبَ الرِّزق منَ البحر، وكان هنالك ملكٌ ظالمٌ يغتصبُ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ، ويصادرُها لنفسه، فأردتُ أن أُحدثَ عيبًا ظاهريًّا يصدُّ الملكَ الظّالمَ عن أخذِها، ولا يؤثِّرُ على جوهرِ عمل السَّفينةِ، حيث كان الملكُ قريبًا منهم، خلفَهم أو أمامَهم، وهذا ما حدثَ، وكان سببًا في احتفاظ المساكين بسفينتِهم، يَتكسَّبون رزقَهم مِنَ العملِ فيها، ثمَّ ثنَّى العبدُ الصّالح ببيانِ حكمةِ قتلِ الغلام، فكشفَ لموسى ﷺ أنَّ هذا الغلامَ، كان له أبوانِ صالحانِ، وقد أعلمَه اللّه بأنَّ هذا الولدَ لو عاش، فسيكونُ سببًا في إضلال والدَيه الصّالحين، وكفْرِهما باللّه، وقد أمرَه اللّه بقتلِه، لينجو الوالدان بصلاحِهما، وينجو الغلامُ بموته، قبلَ التَّكليفِ، مع الطَّمع والرَّجاءِ في اللّه أن يبدِّلَ الوالدين بغلامٍ صالحٍ طاهرٍ منَ الذُّنوب، يكونُ بارًّا بهما رحيمًا، واصلًا لرحمِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ أسلوبِ اللَّفِّ والنَّشرِ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

استخدامُ (أمّا) للتَّفصيلِ، وبيانِ ما يحتاجُ إلى بيانٍ

وقولُه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ شروعٌ في وفاءِ ما وعدَ الخضرُ به موسى، على سبيل اللَّف والنَّشرِ المرتَّب، بأن يُبيِّنَ له على وجه التَّرتيبِ حقيقةَ ما رآه في الأمور الثَّلاثةِ، وقد كان وعَدَه بذلك، فقال: سأُنبِّئُك، قبل مُفارقتي لك بتفسيرِ ما خفيَ عليك مِنَ الأمور الثَّلاثةِ وبيانِها الَّتي لم تستطع عليها صبرًا؛ لأنَّك لم يكن عندَك ما عندي مِنَ العلْمِ بأسرارِها الباطنةِ الَّتي أطلعني اللّه تعالى عليها[1].

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 558.

دلالةُ (أل) العهديَّةِ في لفظِ ﴿ٱلسَّفِينَةُ﴾:

التَّعريفُ في ﴿ٱلسَّفِينَةُ﴾ للعهد، فالمقصودُ السَّفينةُ التي خرقَها، ويملكُها هؤلاء المساكين الَّذين يعملون في البحرِ، فيقول: "أمّا السَّفينةُ الَّتي خرقتُها، فهي لضعفاءَ مُحتاجين يعملون بها في البحرِ لتحصيلِ رزقِهم، فأردتُ أن أُحدثَ بها عيبًا يُزهِّدُ فيها؛ لأنَّ خلْفهم ملكًا يغتصبُ كلَّ سفينةٍ صالحةٍ"[1].

ربَّما كان في الضَّررِ العاجلِ حكمةٌ آجلةٌ

مفهومُ الفاءِ في قوله: ﴿فَكَانَتْ﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جواب ﴿أَمَّا﴾ لما فيها من معنى الشَّرط، وهي عاطفةٌ على محذوفٍ قبلَها، تقديرُه: إن رغبتَ في معرفة حقيقةِ ما جرى لها؛ إنَّها كانت لأناس مُحتاجين، لا يملكون ما يكْفيهم، ويسدُّ حاجتهم، يعملون في البحر عليها سعيًا وراءَ الرِّزق[2]، وقد أفادَ فعلُ الكينونةِ أنَّ الوصفَ لهذه السَّفينةِ كان دأبًا لها، تُعرفُ به، وكان وجودُها صحيحةً سيعرِّضُها لخطرِ الاستيلاءِ عليها.

بيانُ أنَّ السَّفينةَ مملوكةٌ لمساكينَ، دأبُهم الارتزاقُ منها

معنى اللّامِ في شبه الجملة ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ هي لامُ الاختصاص[3]، وقد جاءت في إطار شرحِ الأسبابِ الَّتي حملَتْه على خرقِ السَّفينةِ، فقال: إنَّه إنَّما قام بخرقها، ليُحدثَ فيها عيبًا؛ لأنَّهم كانوا سيمرّون في طريقِهم على ملكٍ ظالمٍ، يأخذ كلَّ سفينةٍ حسنةِ المنظر غصبًا"[4].

مِنَ الأمثالِ الماتعةِ رُبَّ ضارَّةٍ نافعةٌ

سِرُّ الوصْفِ بقوله: ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾:

يبدو أنَّ علَّةَ النَّصِّ على الوصْفِ ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ هدفُه تصويرُ مدَى حاجتِهم الماسَّةِ إلى هذه السَّفينة وإبرازِه؛ لأنَّه لا عملَ لهم

لفظُ (لمساكين)، إبرازٌ لحاجتِهم إلى الإشفاقِ عليهم

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 438.
(2) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 302.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 145.
(4) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 2219.

إلّا من خلالِها، وهذا يَستدعي الإشفاقَ عليهم وليس الإضرارَ بهم، وعليه فلن يكونَ خرقُه لسفينتِهم إلّا مدفوعًا بتحقيقِ مصلحةٍ لهم في ذلك، ويطلقُ (المسكين) على كلِّ منْ أذلَّه شيءٌ، ولو كان له مالٌ كثيرٌ، وهذا غيرُ المسكين المَذْكور في مصرف الزَّكاة[1]، "واحتجَّ بهذه الآية على أنَّ المسكين هو الَّذي له بُلغةٌ مِنَ العيش، كالسَّفينة لهؤلاء، وأنَّه أصلحُ حالًا مِنَ الفقير"[2].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾:

عبَّرَ بالمضارع ﴿يَعْمَلُونَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ممارستَهم للعملِ في البحر، هي سبيلُهم في جلبِ الرَّزق، وأنَّهم وقْتَ خرقِ السَّفينة، كانوا أيضًا مُستمرّين على هذا.

نُكتةُ الحرفِ الجارِّ في قوله: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾:

إبرازُ الحيّزِ الَّذي يعملُ فيه المساكين

﴿فِي﴾ مفيدةٌ للظَّرفيَّةِ، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ عملَهم في البحر، كان يستغرقُ جلَّ أوقاتِهم، وأنَّه مصدرُ رزقِهم.

سرُّ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْبَحْرِ﴾:

رزقُ العبادِ مخبوءٌ في البَرِّ والبحرِ

التَّعريفُ في البحرِ للعهدِ، مرادٌ به بحرٌ بعينِه، يعرفُه كلاهما، والمعنى: أنَّ مجالَ عملِهم البحرُ، يَعملون فيه بنقْلِ الرُّكابِ أوِ البضائعِ، أوِ الصَّيدِ، أو خلافِه[3].

دلالةُ الفاءِ على السَّببيَّةِ في جملةِ ﴿فَأَرَدتُّ﴾:

إرادةُ العبدِ الصّالحِ، من إرادةِ الله تعالى

الفاءُ عاطفةٌ مفيدةٌ بأنَّ هذه الإرادةَ مرتَّبةٌ على كون السَّفينةِ لمساكين يتعيَّشون منها، فهي للسَّببيةِ[4]، والجملةُ بعدَها مسبَّبةٌ عن كونِها لمساكينَ ضعفاءَ، ولِما سيأتي من خشيةِ أن يغتصبَها الملكُ الظّالمُ.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 212.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 14/ 8967.
(4) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتهما على تفسير البيضاوي: 12/ 145.

ورودُ ﴿أَنْ﴾ في سياقِ قولِه: ﴿أَنْ أَعِيبَهَا﴾:

﴿أَنْ﴾: حرفٌ مصدريٌّ يدخلُ على الفعل فيُتأوَّلُ معه بمصدرٍ، ومِنَ الفوائدِ الَّتي تُؤدّيها ﴿أَنْ﴾ في هذه الحالة: "أنَّها تدلُّ على مجرَّد معنى الحدثِ، دون احتمالِ معنًى زائدٍ عليه، ففيها تحصينٌ للمعنى مِنَ الإشكال، وتخليصٌ له من شوائبِ الاحتمالِ"[1].

إبـــرازُ الـحـدثِ بـالـمـصـدرِ دون شائبةِ إشكالٍ

سرُّ استعمالِ ﴿أَنْ أَعِيبَهَا﴾ دونَ (فأعبتها):

السِّرُّ هنا يعودُ إلى ما يميِّزُ المصدرَ المؤوَّلَ من حيثُ دلالتُه على الزَّمن، فإنَّه يتَّضحُ من طبيعة الفعلِ الَّذي دخلت عليه ﴿أَنْ﴾، وهي هنا داخلةٌ على المضارع، لتنصَّ على قصْدِ الحالِ، وهو يفيدُ أنَّ مسألةَ الإعابةِ، لم تكن مقصودةً لذاتِها، وإنَّما هي أمرٌ طارئٌ آنيٌّ تمَّ اللُّجوءُ إليه لتحقيقِ غرضٍ مؤقَّتٍ، وهو النَّجاةُ من ظلْمِ الملكِ وطمعِه في السُّفن السَّليمةِ، كما أنَّ هذا التَّعبيرَ أيضًا ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، مُشعرٌ بأنَّ هذا العيبَ لم يكن عيبًا مؤثِّرًا في جوهرِ عملِ السَّفينةِ، وأنَّه عيبٌ ظاهريٌّ يمكنُ تلافيه بعد تحقيقِ الغرضِ من وجوده، فغايتُه "تفويتُ منفعتِها بذلك ساعةً من نهارٍ، وتكليفُ أهلِها لوحًا يسدّونَها به، وهو أخفُّ ضررًا من تفويتِهم منفعتَها أخذًا ورأسًا، بأخْذِ الملكِ لها"[2].

الـدَّلالـةُ على الـحـالِ، وأنَّ العيبَ عرضٌ، غـيرُ مـقـصـودٍ لذاتِه

سِرُّ تقديمِ المسبَّبِ على السَّببِ:

قال الزَّمخشريُّ: فإن قلتَ: قولُه: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، مسبَّبٌ عن خوفِ الغصبِ عليها، فكان حقُّه أن يتأخَّرَ عنِ السَّببِ، فلمَ قدَّمَ عليه؟ قلتُ: النِّيَّةُ به التَّأخيرُ، وإنَّما قدَّمَ للعناية، ولأنَّ خوفَ الغصْبِ ليس هو السَّببَ وحدَه، ولكن مع كونِها للمساكين[3]، أي: إنَّ السَّببَ هو مجموعُ

الـجـمـعُ بين المسكنةِ وخوفِ ظـلْـمِ الـمـلـكِ وغضبِه، غرَضٌ للسّياقِ مفيدٌ

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 161.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 119.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 741.

الأمرَين معًا: خوفُ الغصبِ ومسكنةُ المُلّاك، لكنَّه رتَّبه على أقوى الجزأين وأدْعاهما، وعقَّبه بالآخر على سبيل التَّقييد والتَّتميم[1]، أي: تقييدُ مسكنتِهم بمقارنة غصبِ الملك؛ لأنَّها لا تكون وحدها سببًا، والتَّتميمُ بذكرِ الجُزءِ الأخيرِ منَ السَّبب لتتمَّ سببيَّتُهُ[2].

على أنَّ صاحبَ الانتصافِ - وأيَّدَه الطَّيبيُّ - يرى أنَّ مُقتضَى النَّظمِ جَعل السَّببَ هو كونُها للمساكين، ثُم بيَّن مناسبةَ هذا السَّببِ بذكْرِ عادةِ الملك في غصْبِ السُّفنِ الصَّحيحةِ، وهذا هو التَّرتيبُ: أن يُرتِّبَ الحكمَ على سبب، ثُمَّ يوضِّحَ المناسبةَ فيما بعدُ، فلا يحتاج إلى جعْلِه مُتقدِّمًا[3].

سرُّ إسنادِ العبدِ الصّالح العيْبَ إلى نفسِه:

مــراعــاةُ حسنِ الأدب، طريقٌ إلى نيْلِ القُربِ في أعلى الرُّتبِ

في قولِه تعالى على لسان العبدِ الصّالح: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أسندَ العبدُ الصّالح العيبَ إلى نفسِه، ولم ينسبْه إلى اللّه تعالى مع أنَّه آمرُه بذلك، من باب مراعاةِ حُسنِ الأدبِ مع ربِّه، بألّا يُسنِدَ إليه فعلَ العيبِ[4].

المرادُ بلفظِ ﴿وَرَآءَهُم﴾، ومرجعُ الضَّميرِ فيها:

تــردُّدُ الــدَّلالــةِ بين ظرفَيِ الزَّمانِ والمــكــانِ، وبــينَ المعنى وضدِّه في ظرفِ المكانِ

كلمةُ (وراء) تُستخدمُ ظرفَ زمان، كما أنَّها تُستخدم ظرفَ مكان، وفي كليْهما قد تدلُّ على معنى الخلْفِ أو معنى الأمامِ، فهي من ألفاظِ الأضدادِ المحتملةِ للأمام والخلْفِ عند بعضِ أهلِ اللُّغة، وهو ممّا عارضَه الفرّاءُ، مُجيزًا أن يكونَ هذا في المواقيتِ والزَّمانِ، لا في المكان"، ولا يَجوزُ أن تَقولَ لرجل وراءك: (هوَ بين يديك)، ولا لرجل هوَ بين يديك: (هوَ وراءك)، إنَّما يَجوزُ ذَلكَ في المواقيت مِنَ الأيّام واللَّيالي والدَّهرِ أن تَقولَ: وراءك بَردٌ شديدٌ: وبين يديك بَرْدٌ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 290، والطيبي، فتوح الغيب: 9/ 533.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 127.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 533، 534.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 212، والبقاعيّ، نظم الدرر: 12/ 119.

شديدٌ؛ لأنَّك أنت وراءه، فجازَ؛ لأنَّه شيء يأتي، فكأنَّه إذا لحقَك صارَ من ورائِك، وكأنَّك إذا بلغتَه؛ صار بين يدَيك، فلذلك جاز الوجهان"[1]، ودلالةُ كلمةِ (وراء) على الخلْفِ هو الشّائعُ فيها، وهو المرجِّحُ عند بعض العلماء في هذه الآية[2]، ومن دلالتها على الأمامِ قولُ الشّاعر:

أليْسَ ورائي أَنْ أَدِبَّ على العَصا *** فيَأْمَنَ أعْدائي، ويَسْأَمَني أَهْلي

ومثلُه قولُه تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: 16]، أي: بين يدَيه[3].

وقيل: إنَّ إطلاقَه على معنى الأمام، هو من باب الاتِّساعِ والمجازِ؛ لأنَّها جهةٌ مقابلةٌ لجهة، فكانت كلٌّ واحدة منَ الجهتين وراء الأخرى؛ إذا لم يردْ معنى المواجهةِ[4].

بلاغةُ تأويلِ لفظِ ﴿وَرَآءَهُم﴾ على الكنايةِ والاستعارةِ:

أهـمـيَّـةُ تـأويـلِ اللَّـفظِ، ودورُه في سياقِ البيانِ

"ولعلَّه عبَّرَ بلفظِ ﴿وَرَآءَهُم﴾، كنايةً عنِ الإحاطة بنفوذ الأمرِ في كلِّ وجهةٍ وارتْهُم ووراوها"[5]، وهذا من بلاغة التَّعبير به، ويحتملُ أن يكونَ لفظُ (الوَراء) مُستعارًا "لحالِ تَعَقُّبِ شَيْءٍ شَيْئًا، وحالِ مُلازمَةِ طَلَبِ شَيْءٍ شَيْئًا بحَقٍّ، وحالِ الشَّيْءِ الَّذي سَيَأْتي قَريبًا، كُلُّ ذَلكَ تَشْبيهٌ بالكائنِ خَلْفَ شَيْءٍ لا يَلْبَثُ أَنْ يَتَّصِلَ بهِ، كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ في [الجاثية: 10]"[6].

سرُّ تقديمِ الظَّرفِ على اسمِ كان في السّياقِ:

يـلـزمُ الـحـذرَ مـن كـان وراءَه الخطرُ

قوله: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾، قدَّم الظَّرفَ ﴿وَرَآءَهُم﴾ على ﴿مَّلِكٌ﴾، للفْتِ النَّظرِ إلى الخطر الَّذي كان مُحدقًا بهم، مُشارفًا

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 157.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 157، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 305، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 353.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 537.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 214 ونسب إلى أبي علي الفارسيّ، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 11.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 119.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 11.

لهم، وقد فصل الظَّرفُ والمضافُ إليه بين (كان) ومعمولِها (اسمها)، لإزجاء الاهتمام بالظَّرفِ؛ لأنَّه "كانَ وراءَهُم مَلِكٌ ظالمٌ، من دأبِه أن يتعقَّب السُّفنَ الصّالحةَ الصَّحيحةَ، ويَستولي عليها، ويأخذَها اغتصابًا وقسرًا من أصحابها[1].

دَلالةُ حذْفِ صفةِ لفْظِ ﴿مَّلِكٌ﴾:

مَـــنِ اشـتـهـرَ بالكُفرِ، جاءت أفعالُه مُتناسبةً مع كُفرِه

يُقدَّرُ وصفٌ محذوفٌ لكلمةِ ﴿مَّلِكٌ﴾، يُفهمُ منَ السّياقِ، وهو (كافر)[2] أو (ظالم)، وقد "كان مرورُهم على ذلك الملكِ الظّالمِ، فكلُّ سفينةٍ صالحةٍ، تمرُّ عليه ما فيها عيبٌ، غصبَها وأخذَها ظلمًا، فأردت أن أخرقَها، ليكونَ فيها عيبٌ، فتسْلمَ من ذلك الظّالمِ"[3].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَأْخُذُ﴾ دونَ غيرِه:

لا يَـغـتـصـبُ أمـلاكَ الـنّـاسِ عنوةً، إلّا ظالمٌ كفورٌ

عبَّرَ بالفعل المضارع ﴿يَأْخُذُ﴾؛ للإشارةِ إلى استمرارِ الملك ومواصلتِه غصْبَ كلِّ السُّفن الصّالحةِ، وضمَّها إلى حوزتِه، وأوثر التَّعبيرُ بالأخذ دونَ غيره، لما فيه من دلالةٍ على القهرِ والغصْبِ[4]، ويُمكنُ أن يكونَ في الأخذِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيث عبَّرَ بالأخذِ عنِ الغصبِ أوِ السَّرقةِ بجامعِ ذهابِ حقِّهم فيها.

معنَى لفظِ ﴿كُلَّ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

دَلالـــةُ صيغةِ العمومِ، مُؤثِّرةٌ في البيانِ النّاصعِ المفهومِ

كلمةُ ﴿كُلَّ﴾ إحدى صيَغِ العمومِ، والمعنى: أنَّه لا يدعُ سفينةً صالحةً دون أن يأخذَها، وهذا الاكتساحُ لكلِّ ما يجري في البحرِ من سُفنٍ دليلٌ على عظمة أسطولِ الملك، وضخامةِ قوَّتِه، وأنَّ المعتادَ ألّا تُفلتَ منه سفينةٌ صالحةٌ.

موقع لفْظِ ﴿غَصْبًا﴾ الإعرابيّ:

آفـــةُ الـغـصـبِ الـتَّـسـلُّـطُ على الـــرِّقـــابِ، بلا مـسـوِّغـاتٍ ولا أسبابٍ

في قولِه: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، نجدُ لفظَ ﴿غَصْبًا﴾ له ثلاثةُ

(1) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 559.
(2) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 447.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 482.
(4) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

أوجهٍ إعرابيَّةٍ: أحدُها: أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ من معنى الفعل، كأنَّه قيل: يغصبُ كلَّ سفينةٍ غصبًا، والثّاني: أنَّه في موضع الحالِ منَ المنويِّ في ﴿يَأۡخُذُ﴾، والثّالثُ: أنَّه مفعول لأجله[1].

دَلالةُ الواو العاطفةِ في جملة: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾:

يـكـونُ الـولـدُ نـعـمـةً عـنـدَ الصَّلاح، وفتنةً عندَ العقوقِ

الواو عاطفةٌ، عطفت هذه الجملةَ على جملة ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾، والمعنى: أنَّ الغلامَ بعقوقِه وسوءِ فعْله، سوف يكون له ضررٌ على أبويه في عاجل الأمر، وهو بالعطف قد جمع هذا المعنى المسوِّغ لهلاكه، بالتسويغ الَّذي قدَّمه لخرق السَّفينةِ، وكلاهما استغربَه موسى، واحتاجَ إلى تسويغٍ مقنعٍ ليفهمَ سرَّ ذلك التَّصرُّفِ الَّذي لا يعقلُه إلّا من أوحى اللّه له به.

سرُّ عطْفِ جملةِ ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ﴾ على سابقتِها:

السِّرُّ في عطفِ هذه الجملةِ على سابقتِها، هو كونُها الثانيةَ في ترتيب الوقوعِ، وكذا في الحاجة إلى تبْيينِ الحكمةِ منها، على طريقةِ (اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّبِ). فهي انتقالٌ إلى بيانِ سرِّ قتلِ الغلامِ، بعدَ بيانِ سرِّ خرقِ السَّفينة.

معنَى الفاءِ في جملةِ: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ﴾:

الأبوَّةُ والإيمانُ، سببان للبِرِّ لا للعُقوقِ

الفاء واقعةٌ في جواب ﴿وَأَمَّا﴾، لما فيه من معنى الشَّرطِ مع التَّفصيل، وهي دالَّةٌ على محذوف تقديرُه: إن سألتَ عن حقيقة ما أصابَه؛ فقد كان أبواه مؤمنَين، وقرأ ابنُ عبّاس: (وأمّا الغلام؛ فكان كافرًا، وكان أبواه مؤمنين)[2]، والرَّبطُ بين وصفِ الأبوين، وما وقع من قتل الغلام، هو تدبيرٌ إلهيٌّ، مُفاده علمُ ما سيكون عليه حالُ الأبوين، لو بقي ابنُهما حيًّا، فعاجلَتْه القُدرة، حمايةً لأبويه من سوء المصيرِ، باعتبار ذلك التَّقدير.

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 315.

(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 8/ 91.

سرُّ التَّعبيرِ بالأبوَّة دونَ الوالدين:

إيثارُ لفظِ الأبوَّة، مُشعرٌ بالرِّعايةِ والتَّربيةِ والكفالةِ الحانيةِ

عبَّر بلفظ الأبِ إيثارًا له على لفظ الوالد؛ لأنَّ الغرضَ ليس فقط تقريرَ نسبةِ الولَديَّة، وأنَّ هذا الأبَ كان سببًا في وجود غلامه، ولكنْ لوحظَ فيه معنى التَّربيةِ والبذلِ، الَّتي هي من خصائصِ الأبوَّة ومظاهرِها، ولذلك يُطلقُ على كلِّ مُنعِم، كما أُطلقَ على النَّبيِّ ﷺ: (أبو المؤمنين)، وكذلك على الجدِّ والعمِّ والمعلِّم، بهذا الملحظِ الَّذي ذكرناه.

دَلالةُ إيثارِ لفظِ (الإيمان) على (الإسلام) هنا:

النَّصُّ على الإيمان يشملُ معه الإسلامَ، فالمعنى (مسلمون ومؤمنون)؛ لأنَّ الأعلى يشملُ الأدنى، ولأنَّ لفظَ الإيمان والإسلام حالَ انفرادِ كلٍّ منهما بالذِّكر، فإنَّه يشملُ الآخرَ معه، فهما كما قيل: إذا تفرَّقا؛ اجتمعا، وإذا اجتمعا؛ تفرَّقا.

النَّصُّ على الإيمانِ، يُدرجُ فيه معنَى الإسلامِ، فهو آثرُ وأبلغُ

ثمّ إنَّ النَّصَّ على الإيمان أيضًا، أنسبُ لمقابلتِه بكلمةِ الكفر، في قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾، والتَّعبيرُ بالإيمان، وإن كان شأنًا قلبيًّا، لكنَّه هنا محفوفٌ بإعلام الله العبدَ الصّالحَ، بما في قلب الأبوَين، كما أعلمَه خصوصًا أمرَ الغلام، وأنَّه قد طُبع على الكفرِ، وأنَّه لو كبرَ؛ لأوغلَ فيه، ولأرهقَ والدَيه طُغيانًا وكفرًا، ولذا قتلَه، فهذا أيضا أمرٌ مخصوصٌ بالعبدِ الصّالح[1]؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ الطِّفل لا تكليفَ عليه ولا مؤاخذةَ.

نُكتةُ عدمِ التَّصريحِ بكفرِ الغلامِ:

قد يبرزُ المعنى غيرُ المُصرَّحِ به، في السّياقِ بالتَّلميحِ إليه

ويُلحظُ أنَّه "لم يصرِّحْ بكفرانِه أو بكفرِه، إشعارًا بعدم الحاجةِ إلى الذِّكر لظهورِه"[2]؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ يدلُّ عليه، والمعنى: "علِمنا ممّا علَّمَنا اللّه، أنَّه سيكونُ منه شرٌّ كبيرٌ؛ فبسببِ ذلك خشيْنا أن يكون منه

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 448.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 238.

إرهاقٌ نفسيٌّ ومادِيٌّ لهما، ويطغى عليهما، ويكفرُ، فيكونَ سُبَّةً لهما، ومصدرَ إيذاء"[1].

دَلالةُ الفاء ومرجعُ الضَّمير في ﴿فَخَشِينَآ﴾:

الضَّميرُ عائدٌ إلى العبدِ الصّالح، وحملُه على الحكايةِ عنِ الله تعالى استعارةٌ

الفاء في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ عاطفةٌ للجملة على ما قبلها، ومترتِّبةٌ عليها ترتُّبَ المسبَّب على السَّبب، والضَّميرُ في ﴿فَخَشِينَآ﴾ هو للعبدِ الصالح؛ لأنَّه المتكلِّم "في قَوْلِه: ﴿فَخَشِينَآ﴾ وقَوْلِه: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، فهُما عائِدانِ إلَى المُتَكَلِّمِ الواحِدِ، بإظْهارِ أنَّهُ مُشارِكٌ لغَيْرِه في الفِعْلِ، وهذا الاسْتِعْمالُ يَكونُ مِنَ التَّواضُعِ لا مِنَ التَّعاظُم؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ الإعْلامِ بأنَّ اللهَ أطْلَعَهُ على ذَلِكَ، وأمَرَهُ، فناسَبَهُ التَّواضُعُ، فقالَ: ﴿فَخَشِينَآ﴾ - ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ولَم يقل مثلَه عِنْد ما قالَ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾؛ لأنَّ سَبَبَ الإعابَةِ إدْراكُهُ لِمَنْ لَهُ عِلْمٌ بحالِ تِلْكَ الأصْقاعِ"[2].

وقيل: هو حكايةٌ لقول الله تعالى، أي: فكرهنا، وعليه يكونُ الكلامُ محمولًا على الاستعارة بجعْلِه على ظنِّ المخلوقين، والمخاطَبين، لو علموا حالَه؛ لوقعت منهم خشيةُ الرَّهق للوالدين، وهذا كما هو القولُ في: (لعلَّ وعسى)، فإنَّ جميع ما في هذا كلِّه من ترجٍّ وتوقُّعٍ وخوفٍ وخشيةٍ، إنَّما هو بحسبِكم أيُّها المخاطَبون[3].

سرُّ ﴿أَن﴾ في جملةِ ﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾:

الجملةُ المؤوَّلةُ مع الفعلِ بمصدرٍ، تفيدُ تعيينَ سببِ الفعلِ

السِّرُّ هنا يعودُ إلى ما يميِّزُ المصدرَ المؤوَّلَ، من حيثُ دلالتُه على الزَّمن، فإنَّه يتَّضحُ من طبيعة الفعل الَّذي دخلت عليه ﴿أَن﴾، وهي هنا داخلةٌ على المضارع، لتنصَّ على قصد الحالِ، وهو يفيدُ أنَّ قتلَ هذا الغلام، لم يكن إلّا للسَّببِ المذكورِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4569.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 13.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 536، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 215.

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُرْهِقَهُمَا﴾:

إفادةُ الاستقبال، خرقٌ لحجابِ المستقبلِ الغيبيِّ المستورِ

أمّا التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ ﴿يُرْهِقَهُمَا﴾؛ فلِما يفيدُه المضارع من معنَى الاستقبال، أي: سيرهقُهما طغيانًا وكفرًا، لو تُرك حتّى يكبرَ، وأمّا إيثارُ (رهق) كمادَّةٍ؛ فلِخصوصِ ما تتضمَّنُه الكلمةُ من معنى الغشيةِ بإرهاق، فمعناه: "غِشْيانُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ"[1]، ويقال: رَهِقَهُ الأمر: غشيَه بقهرٍ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: 27][2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿طُغْيَانًا﴾:

تنكيرُ (طغيانًا) و(كفرًا) منَ التَّهويلِ لشأنِ الغلامِ مُستقبلًا

وفي التَّعبير بقوله: ﴿طُغْيَانًا﴾ و﴿وَكُفْرًا﴾ بصيغة التَّنكير دلالةٌ على تهويل شأنِهما، فالمعنى "أي: تجاوزًا في الظُّلم والكفرِ، وإفراطًا فيهما"[3]، إضافةً إلى ما تُضيفه المادَّةُ من معنى مجاوزةِ الحدِّ والغلوِّ في المخالفة والعصيان والكبْرِ، و"الطُّغيان هو: تجاوزُ الحدِّ في عدم الاكتراثِ بحقِّ الآخر والكبرِ، وكذلك الكفر، وفي مادَّتِه ما يدلُّ على تغطية النِّعم وسَترِها[4].

سِرُّ عطْفِ قولِه: ﴿وَكُفْرًا﴾ على ﴿طُغْيَانًا﴾:

زيادةُ التَّفظيعِ، ملمحٌ في التَّخويفِ والتَّبشيعِ مبينٌ عنِ المرادِ

وعطفَ ﴿وَكُفْرًا﴾ على ﴿طُغْيَانًا﴾ جمعًا بينهما، وربَّما على سبيل التَّدرُّج، بأن يبدأَ التَّأثيرُ بالطُّغيان، ثمَّ يتصاعدَ إلى الكفر، وقيل: الجمع بينهما لزيادة التَّفظيع، وإلّا كان يكفي ذكرُ الكفر[5]، وقدِ استدلَّ به من قال: إنَّ الغلام "كان بالغًا كافرًا؛ إذ لو لم يكن كافرًا؛ لم يلحق والدَيه منه الطُّغيانُ والكفر، وعلى قول من يقول: إنَّه كان صغيرًا، فيحصل قتلُه؛ لأنَّه علمَ أنَّه لو بلغَ كان كافرًا، واللّه أعلمُ بذلك، وليس لنا إلى معرفة ذلك السَّبب - الَّذي قتلَه - حاجةٌ، ولا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهق).
(2) الرّاغب، المفردات: (رهق).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 120.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 36.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 333.

أنَّه كان صغيرًا أو كبيرًا؛ لأنَّه أخبر أنَّه إنَّما قتلَه بأمرِ اللّه لا من تلقاء نفسِه[1].

معنَى حرفِ (الفاء) في جملةِ: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾:

الفاء للسَّببيَّة، أي: سببيَّة الخشيةِ للإرادة المذكورة[2]، والمعنى: (فأردنا بقتله أن يرزقَهما اللّه ولدًا صالحًا خيرًا من ذلك الكافر، وأقربَ برًّا ورحمةً بوالدَيه).

مـعـرفـةُ الـلـه بالمصائرِ، أعلى حكمةً وإحاطةً بالعواقبِ

سرُّ التَّعبيرِ بالجمعِ في ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ دون (أردت):

"الجمعُ في قَوْلِه: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ كالجمع في قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾، فهُما عائِدانِ إِلَى المُتَكَلِّم الواحِد، بإظْهارِ أَنَّهُ مُشارِكٌ لغَيْرِه في الفِعْلِ، وهذا الاسْتِعْمالُ يَكونُ مِنَ التَّواضُعِ لا مِنَ التَّعاظُم؛ لأَنَّ المَقامَ مَقامُ الإعْلامِ بأَنَّ اللّه أَطْلَعَهُ على ذَلِكَ، وأَمَرَهُ، فناسَبَهُ التَّواضُعُ، فقالَ: ﴿فَخَشِينَآ﴾، ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ولَم يقل مثلَه عِنْد ما قالَ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾؛ لأَنَّ سَبَبَ الإعابَةِ إِدْراكُهُ لِمَنْ لَهُ عِلْمٌ بحالِ تِلْكَ الأَصْقاعِ"[3].

المغايرةُ للتَّفنُّنِ لا للاشتراكِ في الضَّميرِ

ويمكنُ أن تكون هذه المغايرةُ، بين الإفراد والجمع من باب التَّفنُّنِ – مطابقةً للحال – بأن يكون أفردَ أوَّلًا؛ لأنَّ مرتبة الإفرادِ مقدَّمةٌ على غيرها، ثمَّ أتى بضمير العظمةِ إشارةً إلى علوِّ مرتبتِه في معرفة الحكم، إذ لا يُقْدِمُ على ذلك القتلِ إلّا من هو كذلك، بخلاف التَّعييب، أو أن يكونَ من باب قول خواصِّ الملك: أَمرُنا بكذا، يَعنون أمرَ الملك العظيم[4].

التَّعبيرُ بالفعل ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ دون غيرِه:

عبَّر بفعل التَّبديل دون غيره، كالعِوضِ مثلًا؛ لأنَّ التَّبديل قد لا يحتاجُ إلى المعاوضةِ، فهو جعْلُ شيء مكانَ آخرَ، أمّا العِوض؛ فهو

التَّبديلُ لا يحتاجُ إلى المعاوضةِ، وقد يكونُ تبديلًا بما هو أفضلُ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 200.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 335، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4569.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 13.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 129.

أن يصير لك الثّاني بإعطاء الأوّل، وليس كذلك التَّبديلُ على كلِّ حالٍ، فقد يكون بعوض، وقد لا يكونُ، بأن يكون مجرَّدَ تغيير وإن لم يأتِ ببدلِه، فالتَّبديلُ على هذا أعمُّ من العوض[1]، والمعاوضةُ تقتضي المماثلةَ بين المتعاوضَين في المقدار، كما في البيع والشَّراء، أمّا التَّبديلُ؛ فمن تَجَلّياته في الكتاب العزيز حسبَ ورودِ مادَّته، فإنَّه يُستعملُ كثيرًا في التَّبديل بما هو أفضلُ وأحسنُ، أو بالحسن مطلقًا مكانَ السَّيّئ مطلقًا، ومنه هذه الآية: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، ومنه أيضًا قولُه تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: 55]، وقولُه: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: 95]، وقولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: 70].

سرُّ إسنادِ فعلِ التَّبديلِ إلى الرَّبِّ:

التَّعويضُ عن الولد، حقٌّ مُستقلٌّ لله، فلا يُسندُ لأحدٍ غيرِه

أسندَ فعلَ التَّبديلِ إلى اللّه تعالى وحده؛ لأنَّه لمّا كان التَّعويضُ عن هذا الولد للّه وحدَه، فلا جرمَ أسندَ الفعلَ إليه، فقال: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾[2].

توجيهُ القراءاتِ الواردةِ في ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾:

إبدالُ اللّه تعالى، مكرَّسٌ لما هو أحسنُ وأرقَى

قولُه: ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ فيه قراءتان، فقد قرأ نافعٌ وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الباء، وتشديد الدّال: ﴿أَن يُبَدِّلَهُمَا﴾ مِنْ (بَدَّلَ)، والباقون بسكونِ الباءِ وتخفيفِ الدّالِ ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، مِنْ (أَبْدَلَ)[3]، وقراءةُ التَّشديد فيها معنى المبالغةِ في تحقيق فعل الإبدال منّة من اللّه تعالى للأبوين ورحمة بهما، وقيل: هما لغتان بمعنًى واحدٍ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبية، مضافةً إلى ضمير الأبوَين:

إيثارُ اللَّفظِ الأكثرِ دلالةً على المرادِ، من فصيحِ البيانِ المُستفادِ

وسرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّةِ في هذا السّياق، وإضافتِه إلى ضمير

(1) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 121، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 129.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 314.
(4) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 7/ 539.

الوالدَين؛ للدَّلالةِ على إنعام اللّه على الوالدين، "وإرادةِ وصولِ الخير إليهما"[1]، بقتل هذا الغلامِ الَّذي كان سيرهقُهما طغيانًا وكفرًا؛ فالرُّبوبيَّةُ فيها معاني الرِّعايةِ والعنايةِ والتَّربيةِ والحفظ، وفي إضافته هذا اللَّفظَ إلى ضميرهما، تشريفٌ آخرُ لهما.

المرادُ بالخيريَّةِ في لفظِ ﴿خَيْرًا مِّنْهُ﴾:

كلمةُ (خير) تأتي للتَّفضيل، حين يشتركُ اثنان في فضيلةٍ، غيرَ أنَّ أحدَهما أرجحُ من الآخر فيها، لكنَّها ليست على بابها منَ التَّفضيل؛ لأنَّه لا خيرَ فيه ولا زكاةَ[2].

كلمةُ (خير) تأتي للتَّفضيلِ، وقد لا يكونُ مرادًا هنا

ويجوزُ أن تكون على بابها منَ المفاضلة، وذلك من جهة كونِه كان ظاهرَ الزَّكاءِ في الحال، وأمّا في المآلِ، فلو عاش؛ كان خبيثًا ظاهرَ الخبثِ[3].

سرُّ الوصْفِ بالزَّكاة في قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾:

وسرُّ الوصفِ بالزَّكاة، في قوله: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾؛ لما في معناه منَ الدَّلالة على الطَّهارةِ والنَّماء؛[4] ولذا قالوا في تفسير ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، أي: طهارةً مِنَ الذُّنوب والأخلاقِ الرَّديئةِ، وقيل: خيرًا منه دينًا، وهو تفسيرٌ باللّازم[5].

معنَى (من) في قوله: ﴿مِّنْهُ﴾:

ما عند الله خيرٌ وأبقَى، لمن رضي بعطاء الله واتّقَى

أفادت (من) هنا معنَى الابتداء، أي: رزقٌ يبدأ من عنده، "ولمّا كانت الدُّنيا فانيةً، لا بقاءَ لها، وقد ثبتَ في علمِه تعالى أنَّ هذا الولدَ سيكونُ فتنةً لأبوَيْه، وسيجلبُ عليهما المعاصيَ، والسَّيِّئاتِ، وسيجرُّهما إلى العذاب؛ كانت الرَّحمةُ الكاملةُ في أخْذِه، بدلَ أنْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 238، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 334.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 149.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 121.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 334.

يتمتَّعا به في الدُّنيا الفانية، ويَشقيا به في الآخرة الباقية"[1]، فما عند الله خيرٌ منه.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنْهُ﴾:

غرضُ التَّقديمِ الاهتمامُ، وما يترتَّبُ عليه في المعتادِ

قدَّمَ شبهَ الجملة ﴿مِّنْهُ﴾ على الجُملتَين بعده للاهتمام؛ إبرازًا لنعمة التَّبديل المرجوَّةِ إكرامًا للوالدين، وتعويضًا لهما بمن هو خيرٌ وأزكى، وأبرُّ بهما، وأطوعُ لهما.

سرُّ عطْفِ قولِه: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ على سابقِه:

بقاءُ هذه الجملةِ على معنَى التَّفضيل دونَ سابقتِها

عطفَ جملةَ ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، على جملة ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾، بالواو للجمعِ بين معنيَيهما جزاءً للأبوين، ولئن كانتِ الجملةُ السّابقة ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ خارجةً عن نطاق المفاضلةِ، فإنَّ جملةَ ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ محمولةٌ على التَّفضيلِ، "ولا ضيْرَ في حمل أحدِ أفعلِ التَّفْضيلَين على التَّفْضيل دون الآخرِ عند قيام القرينةِ، ولا خللَ في حسنِ النَّظمِ"[2].

نُكتةُ تنكيرِ ﴿زَكَوٰةً﴾ و﴿رُحْمًا﴾:

إفادةُ التَّعظيم والتَّفخيمِ، من تثمينِ العطاءِ الرَّبانيِّ الكريمِ

في قولِه تعالى: ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، أفادَ التَّنكيرُ هنا التَّعظيمَ والتَّفخيمَ، والمعنى: "خيرًا منه طهارةً، وأقربَ رحمةً، أي: أدنى إلى الرَّحمةِ والبِرِّ، من هذا الَّذي يرهقُهما طغيانًا وكفرًا، وأقربَ رُحمًا، أي: أوصلَ لرحمِه، وأحْفظَ لحقِّ الأبوَّةِ"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسكين والفقير:

الفقيرُ والمسكينُ يتعاقبانِ، وإذا انفرد أحدُهما بالذِّكرِ؛ شملَ معه معنَى الآخرِ

لا شكَّ أنَّ كلًّا منَ الفقير والمسكين يجمعُهما مشتركٌ، وهو الحاجةُ، غيرَ أنَّ العلماء مختلفون حولَ أيُّهما أكثرُ حاجةً منَ الآخر؟ فبعضُهم يعُدُّ الفقيرَ، وبعضُهم يعُدُّ المسكينَ، وهذا الخلافُ واردٌ عند

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ (الخواطر): 14/ 8972.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 12/ 149.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4570.

ورود اللَّفظَين معًا في سياق واحد، وإلّا فإنَّ كلَّ واحدٍ منهما يكفي في الدَّلالة على كلَيْهما عند انفرادِه، أي: بأن يشملَ الفقيرُ المسكينَ أيضًا عند انفرادِه، كما يشمل المسكينُ الفقيرَ معه عند انفرادِه، فالخلاف فيه أشبهُ بالخلافِ بين الإيمان والإسلام، فإذا اجتمعا؛ افترقا، وإذا افترقا؛ اجتمعا، وممّا حُكيَ في الفرق بينَهما، ما قاله أبو هلالٍ العسكريُّ في الفروقِ: الفَقيرُ: الَّذي لا يسْأَل، والمسكينُ: الَّذي يسْأَلُ، ومثلُه عَن ابْن عَبّاس والحسن وجابِر ابن زيد ومُجاهد - وهو قَول أبي حنيفَة - وهذا يدلُّ على أَنَّه رأى المِسْكين أضعفَ حالًا وأبلغَ في جِهَة الفقر، ويدلُّ عليْه قَوْلُه تَعالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]، فوصفهم بالفقر، وأخْبر مَعَ ذَلك عَنْهُم بالتَّعفُّف حَتَّى يَحْسبَهُم الجاهلُ بحالهم أَغْنياءَ منَ التَّعفُّف، ولا يَحْسبُهُم أَغْنياءَ إلّا ولَهُم ظاهر جميلٌ، وعليْهِم بزَّةٌ حَسَنَة، وقيل لأعرابي: أفقيرٌ أَنْت؟ فقالَ: بل مِسْكين، وأنْشد:

أمّا الفَقيرُ الَّذي كانَتْ حَلوبتُهُ *** وفقَ العيالِ فلَم يُترَكْ لَهُ سَبَدُ

فَجعل للْفَقير حلوبةً، والمِسْكين الَّذي لا شَيْء لَهُ، فأَمّا قَوْله تَعالَى: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾؛ فأثْبت لَهُم مُلكَ سفينةٍ، وسَمّاهُم مَساكين، وهذا منَ الأدلَّة الَّتي استدلَّ بها العلماءُ على أنَّ المسكينَ أحسنُ حالًا منَ الفقير، فإنَّهُ رويَ أَنَّهم كانوا أجراءَ فيها، ونسبها إلَيْهِم لتصرُّفِهم فيها[1]، لكنَّ ظاهرَ القرآن يُشعرُ بأنَّهم كانوا مالكيها، بدلالة لامِ الاختصاص والملك: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾.

التَّعبيرُ بالعيبِ أنسبُ، لعدمِ خروجِها عن حدِّ الاعتدالِ الذي يَعنيه لفظُ الفسادِ

العيبُ والفسادُ:

العيبُ هو الأمرُ الَّذي يصيرُ به الشَّيءُ عَيْبَةً، أي: مقرًّا للنَّقص،

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 177.

يقال: عِبْتُهُ جعلتُه مَعيبًا، إمّا بالفعل، كما قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وإمّا بالقول، وذلك إذا ذممتَه، نحو قولك: عِبْتُ فلانًا[1].

والفَسادُ خروجُ الشَّيء عنِ الاعتدال، قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا[2]، مَأْخوذٌ من (فسد اللَّحم)؛ إذا أنتنَ، ولم يُمكنِ الانْتِفاعُ بهِ[3].

وبهذا يظهرُ أنَّ التَّعبيرَ بالعيبِ أنسبُ؛ لأنَّه قصدَ به التَّعبيرَ عن منقصةٍ توقعُ عيبًا ظاهريًّا، لكنَّها لا تُخرجُ السَّفينةَ عن حدِّ الاعتدالِ.

الغصبُ والسَّرقةُ:

الغَصْبُ أخذُ الشَّيء ظلمًا وقهرًا[4]، والسَّرقةُ هي أَخذُ مالٍ مُعْتَبرٍ من حرزِ أجنبيٍّ لا شُبْهَة فيه خُفْيَةً، وهو قاصدٌ للْحِفْظ، في نَومه أو غيبتِه[5].

الغصبُ ما يؤخذُ عنوةً، ويكونُ ظاهرًا، والمغصوبُ ليس في حِرزٍ، والسَّرقةُ ضدُّه

وبهذا يظهرُ الفرقُ بين الغصبِ والسَّرقةِ؛ في كوْنِ الغصبِ لا يؤخذُ فيه المغصوبُ خفيةً ولا من حرزٍ، كما هي السَّرقة، ومِن ثَمَّ يكونُ التَّعبيرُ بالغصبِ أولى؛ لكونِ أخذِ السُّفن الصّالحةِ من قِبَل الملكِ، كان عنوةً وظلمًا.

الإيمان والإسلام:

الإسلام لُغَةً: الانقيادُ المُتَعلِّقُ بالجوارح، كَما في قَوْله تَعالَى: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: 14]، والإيمان هو الاعْترافُ مع الاعْتِقاد بالقَلْبِ والوَفاء بالفِعْلِ.

عند الانفرادِ كلاهُما بمعنَى الآخرِ، وعند الاجتماعِ الإسلامُ ظاهرُ الأعمالِ، والإيمانُ المعتقدُ

وممّا وردَ مُشعرًا بوحدة المعنى بينهما قَوْلُه تَعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦﴾ [الذّاريات: 35 - 36] فالمُناسِبُ أَن يُراد بالمُؤْمنينَ المُسلمونَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عيب).
(2) الراغب، المفردات: (فسد).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 692.
(4) الرّاغب، المفردات: (غصب).
(5) الكفويّ، الكليات، ص: : 514.

قال الكفويُّ: واعْلَم أَن مُخْتارَ جُمهورِ الحَنَفيَّة والمعتزلة وبَعضِ أهلِ الحَديث أَنَّ الإيمان والإسْلامَ متَّحدان، وعند أبي الحسنِ الأَشْعَريِّ أَنَّهُما مُتباينان، وغايَة بها يُمكن في الجَواب أَنَّ التَّغايُرَ بَين مفهومَي الإيمان والإسْلام، لا ما صدق عليه المُؤمن والمُسلم؛ إذْ لا يَصحُّ في الشَّرْع أَن يُحكمَ على واحِدٍ بأَنَّهُ مُؤمن، ولَيْسَ بمُسلم ولا بالعَكْس[1].

والحاصل أنَّ النَّصَّ على الإيمان يشملُ معه الإسلامَ، فالمعنى (مسلمون ومؤمنون)؛ لأنَّ الأعلى يشملُ الأدنى، ولأنَّ لفظَ الإيمان والإسلام، حالَ انفراد كلٍّ منهما بالذِّكْر، فإنَّه يشملُ الآخرَ معه، فهما كما قيل: إذا افترقا؛ اجتمعا، وإذا اجتمعا؛ افترقا.

(1) الكفويّ، الكليات، ص: : 112.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»